فصل
في الأخذ والسرقة وما في ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل

(القسم العقلي)

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق، واقتدى بمن تقدم وسبق، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة ويجب أن نتكلم أولاً على المعاني، وهي تنقسم أولاً إلى قسمين: عقلي وتخييلي، وكل واحد منهما يتنوع. فالذي هو العقلي على أنواع، أولها عقلي صحيح، مجراه في الشعر والكتابة، والبيان والخطابة، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء، والفوائد التي تثيرها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعاً من أحاديث النبيﷺ وكلام الصحابة رضي اللّه عنهم ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، وقصدهم الحق. أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء. فقوله:

وما الحسب الموروث لا درّ درّه ... بمحتسب إلا بآخر مكتسب

ونظائره كقوله:

إني وإن كنت ابن سيد عامر ... وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة ... أبى اللّه أن أسمو بأم ولا أب

معنى[1] صريح محض يشهد له العقل بالصحة، ويعطيه من نفسه أكرم النسبة[2]، وتتفق العقلاء عَلَى الأخذ به، والحكم بموجبه، في كل جيل وأمة، ويوجد له أصل في كل لسان ولغة، وأعلى مناسبة وأنورها، وأجلها وأفخرها، قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وقول النبيﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[3] وقوله عليه السلام: «يا بني هاشم لا تجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب»[4] وذلك أنه لو كانت القضية على ظاهر يغتر به الجاهل ويعتمده المنقوص لأدى ذلك إلى إبطال النسب أيضاً وإحالة التكثر به، والرجوع إلى شرفه، فإن الأول لو عدم الفضائل المكتسبة، والمساعي الشريفة[5] ولم يبن من أهل زمانه بأفعال تؤثر، ومناقب تدوّن وتسطر، لما كان أولاً ولكان العلم من أمره مجهلاً، ولما تصور افتخار الثاني بالانتماء إليه، وتعويله في المفاضلة عليه، ولكان لا يتصور فرق بين أن يقول هذا أبي ومنه نسبي، وبين أن ينسب إلى الطين، الذي هو أصل الخلق أجمعين، ولذلك قالﷺ: «كلكم لآدم وآدم من التراب»[6]، وقال محمد بن الربيع الموصلي:

الناس في صورة التشبيه أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
فإن لم يكن لهم في أصلهم شرف	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرىء ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداء

فهذا كما ترى باب من المعاني التي تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات

(1) قوله معنى صريح... الخ خبر مبتدأ هو قوله: فقوله * وما الحسب الموروث... الخ وما عطف عليه، يعني أن قول الشاعر صاحب البيت الأول في الحسب ونظائره كقول الشاعر صاحب البيتين الآخرين فيه معنى صريح معقول.

(2) فيقال عقلي، (ش).

(3) رواه مسلم من حديث طويل.

(4) مروي بالمعنى.

(5) يريد بقوله (الأول) الأب أو الجد مثلاً ممن يفتخر بالانتساب إليه.

(6) من خطبة حجة الوداع.

الدالة عليها فإنها تتلاقى وتتناظر، وتتشابه وتتشاكل، ومكانه من العقل ما ظهر لك واستبان، ووضح واستنار، وكذلك قوله:

* وكل امرىء يولي الجميل محبب *

صريح معنى ليس للشعر في جوهره وذاته نصيب، وإنما له ما يلبسه من اللفظ، ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية، من الاختصار وخلافه، والكشف أو ضده، وأصله قول النبيﷺ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[1] بل قول اللّه عز وجل: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

وكذا قوله:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى　　حتى يراق على جوانبه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته، وبه جاءت أوامر اللّه سبحانه، وعليه جرت الأحكام الشرعية، والسنن النبوية، وبه استقام لأهل الدين دينهم، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم، إذ كان موضوع الجبلة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين، والغواة المعاندين، الذين لا يعون الحكمة فتردعهم، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم، ولا يحسون بنقائص الغي والضلال، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال، فيجدوا لذلك مس ألم يحبسهم على الأمر، ويقف بهم عند الزجر، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبشار من حد الحديد، وسطو البأس الشديد، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف، ولم تطلق فيهم الحتوف، لما استقام دين ولا دنيا، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا، فلا يطيب الشرب من منهل لم تُنْفَ عنه الأقذاء، ولا تقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء، وكذلك قوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته　　وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى　　مضر كوضع السيف في موضع الندى

---

(1) من الأحاديث المشتهرة على الألسن بزيادة: «وبغض من أساء إليها». وروى مرفوعاً وموقوفاً عن ابن مسعود، وكلاهما باطل، وقيل: أو الموقوف معروف عن الأعمش.

(القسم التخييلي)

وأما القسم التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق، وإن ما أثبته ثابت، وما نفاه منفي، وهو مفتنُّ المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريباً، ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً، ثم إنه يجيء طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطي شبهاً من الحق، وغشي رونقاً من الصدق، باحتجاج يخيَّل، وقياس يُصنع فيه ويُعمل، ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة في قدره؛ وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام، فالعلة أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية، أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال.

وأقوى من هذا في أن يظن حقاً وصدقاً وهو على التخيل قوله:

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجبْ بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقه، لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب؛ فإذا هو أدركه كره أن يفارقه، فتراه لذلك ينكره ويكرهه، على أن إرادته أن يدوم له، إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة، فأما كونه مراداً وموددواً فمتخيل فيه وليس بالحق والصدق، بل المودود الحياة والبقاء، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن في زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها، وكان العيش فيها محبباً إلى

النفوس صارت محبته لما لا يبقى له[1] حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب.

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه، أو مدحه أو ذمه فتعلقوا ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة، وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة كما تراه في باب الشيب والشباب كقول البحتري:

وبياض البازي أصدق حسناً   إن تأملت من سواد الغراب

وليس إذا كان البياض في البازي آنق في العين، وأخلق بالحسن من السواد في الغراب، وجب لذلك كله أن لا يذم الشيب ولا تنفر منه طباع ذوي الألباب، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون، ولا أتت الغواني ما أتت من الصد والإعراض لمجرد البياض، فإنهن يرينه في قُباطي مصر فيأنسن[2]، وفي أنوار الروض وأوراق النرجس الغضّ فلا يعبسن، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته، بل لذهاب بهجاته، وإدباره في حياته، وإنك لترى الصفرة الخالصة في أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشمال فتكرهها[3] وتنفر منها، وتراها بعينها في إقبال الربيع في الزهر المتفتق، وفيما ينشئه ويَشيه[4] من الديباج المونق، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية، وتمتلىء من الأريحية، ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة، والحياة المستفادة، وحيث أبشرتْ أرواح الرياحين وبَشرت أنواع التحاسين[5]، ورأيته في

(1) أي للحياة التي لا تبقى له إلا إذا بقي الشيب (ش).

(2) القباطي بالضم: جمع قبطية، وهي ثياب من كتان تنسج بمصر نسبة إلى القبط بالكسر، على غير قياس كالدهري والسهلي. وقد تكسر القاف على القياس ويخفف الجمع.

(3) في نسخة الأستانة: فتنكرها بدل فتكرهها.

(4) أي وفيما ينشئه الربيع، أي يحدثه من الإنشاء، وهو إيجاد ما فيه نمو وتجدد حقيقة أو صورة، ولك أن تقول: ينشيه بالياء لمناسبة يشيه وهو من الوشي، أي ما يزينه الربيع من الأزهار والنوار الذي يشبه الديباج.

(5) يقال: أبشرت الأرض، إذا أخرجت بشرتها، أي ما ظهر من نباتها. وأما بشر الثلاثي فهو من بشرني فلان أي لقيني، وهو حسن البشر طلق الوجه، والتحاسين: الأشياء الحسنة جمع تحسين، اسم بني على تفعيل، يقال: ما أبدع تحاسين الطاووس وتزايينه (ش).

الوقت الأخر حين ولَّت السعود، واقشر العود[1]، وذهبت البشاشة والبِشر، وجاء العبوس والعسر ـ هذا ولو عدم البازي فضيلة أنه جارح وأنه من عتيق الطير[2] لم تجد لبياضه الحسن الذي تراه، ولم يكن للمحتج به على من ينكر الشيب ويذمه ماتراه من الاستظهار، كما أنه لولا ما يهدي إليك المسك من رياه التي تتطلع إليها الأرواح، وتهش لها النفوس وترتاح، لضعفت حجة المتعلق به في تفضيل الشباب، وكما لم تكن العلة في كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذي غض عنه الأبصار، ومنحه العيب والإنكار، كذلك لم يحسن سواد الشعر في العيون لكونه سواداً فقط، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته، وبهجته وطلاوته، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الإقبال، ويريانك الاقتبال[3]، ويحضرانك الثقة بالبقاء، ويبعدان عنك الخوف من الفناء، وإنك لترى الرجل وقد طعن في السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه[4] الذي كان، وعاد لا يزَّين كما زان[5]، وظهر فيه من الكمود والجمود، ما يريكه غير محمود.

وهكذا قوله:

والصارم المصقول أحسنُ حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل

[بناء الشعر والخطابة على التخييل لا المعقول]

احتجاج على فضيلة الشيب وأنه أحسن منظراً من جهة التعلق باللون وإشارة إلى أن السواد كالصدإ على صفحة السيف. فكما أن السيف إذا صقل وجلي وأزيل عنه الصدأ ونقي كان أبهى وأحسن، وأعجب إلى الرائي وفي عينه أزين،

(1) أقشر العود أي تخشن وتغير لونه لعدم الري.
(2) العتيق: القديم والكريم، والخيار من كل شيء ولقب البازي.
(3) الاقتبال: استئناف الأمر وتجدده. واقتبل الرجل: كاس بعد حماقة، أي صار كيساً بعد أن كان أحمق. وأما الإقبال الذي ذكر قبله فالمراد به إقبال الأرض ومجيئها بالنبات.
(4) أبهجت الأرض: بهج نباتها. أي حسن وراق منظره.
(5) أي لا تظهر فيه زينة كما زان نفسه، أو زان أقرانه أو حبيباته بصحبتهم أو انتسابهن إليه. (ش).

كذلك يجب أن يكون حكم الشعر في انجلاء صدأ السواد عنه، وظهور بياض الصقال فيه، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعاني التي يكره لها الشيب، ويناط بها العيب.

وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشيئين في وصف علة الحكم يريدونه وإن لم يكن في المعقول، ومقتضيات العقول. ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية، وأن يأتي على ما صيره قاعدة وأساساً ببينة عقلية، بل تسلم مقدمته التي اعتمدها بينة، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه، وتناسينا سائر المعاني التي لها كره ومن أجلها عيب. وكذلك قول البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكم   في الشعر يكفي عن صدقه كذبه[1]

أراد: كلفتمونا أن نجري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لا ندّعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، ويلجىء إلى موجبه (مع أن الشعر يكفي فيه التخييل، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل)[2] ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد، وإياه عَمد، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية، والقوانين العقلية، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به، والكشف عن قدره وخسته، ورفعته أوضعته، ومعرفة محله ومرتبته.

---

(1) قال شيخنا في الدرس أن في البيت رواية أخرى * والشعر يكفي عن صدقه كذبه * والمصراع عليها جملة حالية والشعر مبتدأ خبره يكفي... الخ. وعلى الرواية الأولى «يكفي» جملة حانية وبعد البيت:

والشعر لمح تكفي إشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

(2) وجدت هاتين السجعتين بخط شيخنا في حاشية نسخة الدرس وهما ما يحتاج إليه المقام، ومن أسلوب المؤلف، وليستا تفسيراً لشيء كسائر تعليقات (ش) فوضعتها في الأصل، وإن لم يصرح شيخنا بأنها منه، وميزتها بالوضع بين هلالين وعلقت عليها هذا التنبيه.

[من قال خير الشعر أكذبه وضده]

وكذلك قول من قال: «خير الشعر أكذبه» فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بأن ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منه عار، أو يصف الشريف بنقص وعار، فكم جواد بخَّله الشعر وبخيلٍ سخَّاه، وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث، وذي ضعة أوطأه قمة العيوق[1] وغبي قضى له بالفهم، وطائش ادعى له طبيعة الحكم، ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره، وتنشر ديابيجه، ويفتق[2] مسكه فيضوع أريجه.

وأما من قال في معارضة هذا القول «خير الشعر أصدقه» كما قال:

وإن أحسن بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خبر الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه. والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر. فمن قال «خيره أصدقه» كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح، أحب إليه وآثر عنده، إذ كان ثمره أحلى، وأثره أبقى، وفائدته أظهر، وحاصله أكثر، ومن قال «أكذبه» ذهب إلى أن الصنعة إنما يمد باعها، وينشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم، والوصف والبث والفخر والمباهاة، وسائر المقاصد والأغراض،

(1) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها، وقمة الشيء بالكسر أعلاه.

(2) فتق المسك: أدخل عليه شيئاً يستخرج به رائحته.

وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويزيد، ويبدىء في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً، ومدداً من المعاني متتابعاً، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهي.

وأما القبيل الأول، فهو فيه كالمقصور المداني قيدُه[1]، والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده[2]؛ ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة، وصوراً مشهورة، ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها، ولا يرجي ازديادها؛ وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى[3] ولا تزيد، ولا تربح ولا تفيد، وكالحسناء العقيم، والشجرة الرائعة لا تمتع بجني كريم.

هذا ونحوه يمكن أن يتعلق به في نصرة التخيل وتفضيله، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه، وتفخيم قدره وتعظيمه، وما كان العقل ناصره، والتحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، والمنيع مناكبه، وقد قيل: الباطل مخصوم وإن قضي له، والحق مفلج وإن قضي عليه[4]، هذا ومن سلم أن المعاني المعرقة في الصدق، المستخرجة من معدن الحق، في حكم الجامد الذي لا ينمى، والمحصور الذي لا يزيد، وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبي فراس:

وكنا كالسهام إذا أصابت   مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقلياً عريقاً في نسبه، معترفاً بقوة سببه، وهو على ذلك من فوائد أبي فراس التي هو أبو عذرها، والسابق إلى إثارة سرها[5].

---

(1) داني القيد: مداناة ضيقه.

(2) الأيد: القوة.

(3) نمى ينمي: كرمى يرمي، أفصح من نما ينمو الواوي ومعناهما واحد.

(4) المفلج (اسم فاعل): الفائز الظافر يقال فلج (كنصر وضرب) وأفلج لازم ويتعدى بعلى فيقال فلج وأفلج على خصمه، أي استظهر وانتصر.

(5) يقال (هو أبو عذر هذا الكلام) أي هو أول من اقتضبه واخترعه، ويقال (ما أنت بذي عذر هذا الكلام) أي لست بأول من اقتضبه. والعذر هنا بالضم مخفف من العذرة وهي البكارة بحذف التاء لجريه مثلاً.

[الاستعارة ليست من التخييل]

واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل، لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره. وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى، كقوله عز وجل: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]. ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهراً، وإنما المراد إثبات شبهه. وكذلك قول النبيﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن». ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل، لكن من حيث الشبه المعقول، وهو كونها سبباً للعلم بما لولاها لم يعلم، لأن ذلك العلم طريقه الرؤية، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة، وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة، فقد جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة، وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه. وكذا قولهﷺ: «إياكم وخضراء الدمن». معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل.

وإذا كان هذا كذلك بأن منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح، والمجال الواسع، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخييل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف المخبر من أنه إنما يتسع المقال ويفتن، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها، وتكثر أغصانها وتتشعب فروعها، إذا بسط من عنان الدعوى فادعى ما لا يصح دعواه، وأثبت ما ينفيه العقل ويأباه.

وجملة الحديث الذي أريده بالتخيل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى. أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً، ويدعي دعوى لها

شبح في العقل. وستمر بك ضروب من التخييل هي أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة تكشف وجهه في أنه خداع للعقل وضرب من التزويق، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل، وأزيدك حينئذ إن شاء اللّه كلاماً في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم: «خير الشعر أكذبه». وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه في أنه اتساع وتجوز فاعرفه[1].

وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا: خير الشعر أكذبه وهم يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط، نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة، ويقول للبائس المسكين: إنك أمير العراقين، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة، وفهم ثاقب، وغوص شديد، واللّه الموفق للصواب.

وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقي وغير الحقيقي.

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره في عظم شجرته إذ تؤمل نسبه، وعرفت شعوبه وشعبه ـ على ما أشرت إليه قبيل ـ لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه، وتفصيل يستغرقه؛ وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشيء بعد الشيء ويجمع ما يحصره الاستقراء. فالذي بدأت به من دعوى أصل وعلة في حكم من الأحكام هما كذلك ما تركت المضايقة، وأخذ بالمسامحة، ونظر إلى الظاهر، ولم ينقر عن السرائر، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى، وهو شيء تراه كثيراً بالآداب والحكم البريئة من الكذب. ومن الأمثلة فيه قول أبي تمام:

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ ... دى الرزايا إلى ذوي الأحساب
فلهذا يجف بعد اهتزاز ... قبل روض الوهاد روض الروابي

وكذا قوله يذكر الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته في العطايا على الحاضرين عنده اللازمين خدمته:

لزموا مركز الندى وذراه ... وعَدَتْنا عن مثل ذاك العوادي

---

(1) إن المصنف قد بسط هذه المسألة في كتاب دلائل الإعجاز.

غير أن الربى إلى سبل الأنو اء أدنى والحظ حظ الوهاد

لم يقصد من الربى إلى العلو ولكن إلى الدنو فقط، وكذلك لم يرد بذكر الوهاد الضعة والتسفل والهبوط كما أشار إليه في قوله: * والسيل حرب للمكان العالي * وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء ثم أنها تتجاوز الربى التي هي دانية قريبة إليها إلى الوهاد التي ليس لها ذلك القرب.

ومن هذا النمط في أنه تخيل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله:

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترَجَّى حين تحتجب

فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذي يعد في مجرى العادة جوداً منها، ونعمة صادرة عنها، كما قال ابن المعتز:

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار

وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقة في الشيء وطبيعة أو واجب على الجملة من حيث هو أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفاده. وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ولهم فيه عبارات منها قولهم: إن الشمس تستعير منه النور وتستفيده، أو تتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة. وألطف ذلك أن يقال: تسرق وأن نورها مسروق من الممدوح. وكذلك يقال: المسك يسرق من عرفه، وأن طيبه مسترق منه ومن أخلاقه. قال ابن بابك:

ألا يا رياض الحَزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل

(ونوع آخر) وهو أن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها، إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى، أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراء. ويدخل في هذا الفن قول المتنبي:

لم يحك نائلك السحاب وإنما حُمَّت به فصبيبها الرحضاء

[التخييل الشبيه بالحقيقة مما أصله التشبيه]

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وضعاً، وصوره في صورة خرج معها إلى ما لا أصل له في التشبيه، فهو كالواقع بين الضَّربين. وقريب منه في أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة في تشبيهه وخلع عنه صورته خلعاً قوله:

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيبا

ومن لطيف هذا النوع قول أبي العباس الضبي:

لا تركنن إلى الفرا ق وإن سكنت إلى العناق[1]
فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق

أدعى لتعظيم الفراق أن ما يرى من الصفرة في الشمس حين يرق نورها بدنوها من الأرض[2] إنما هو لأنها تفارق الأفق الذي كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم، وأنِسَت بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها.

(ونوع آخر) منه قول الآخر:

قضيب الكرم نقطعه فتبكي ولا تبكي وقد قطع الحبيب[3]

وهو منسوب إلى إنشاد الشبلي[4] ويقال أيضاً إن أبا العباس أخذ معناه في بيته من قول بعض الصوفية، وقيل له: لِم تصفر الشمس عند الغروب فقال: من حذر الفراق.

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولي:

---

(1) أحفظ الشطر الثاني هكذا: «فإنه مر المذاق».
(2) أي بحسب النظر والكلام كله تخييل لا حقيقة.
(3) إذا قطع القضيب من الكرم يظل الماء ينقط من حيث قطع وهو ما عبر عنه ببكاء شجرة الكرم، ولعله فيبكي أي القضيب.
(4) الشبلي هو أبو بكر دلف ابن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد، مات سنة 334هـ.

الـريـح تـحـسـدني عـلـيـــ ـك ولـم أخـلـهـا فـي الـعـدا
لـمـا هـمـمـت بـقـبـلـة ردت عـلـى الـوجـه الـردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب في طباعها أن ترد الرداء عليه، وأن تلفَّ من طرفيه، وقد ادّعى أن ذلك منها لحسدها وغيرة لمحبوبه. وهي من أجل ما في نفسها، تحول بينه وبين أن ينال من وجهها، وفي هذه الطريقة قوله:

وحـاربـنـي فـيـه ريـب الـزمـان كـأن الـزمـان لـه عـاشـق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولاً من طريق النص على شيء بل أثبت محاربة من الزمان في معنى الحبيب ثم جعل دليلاً عليها جواز أن يكون شريكاً في عشقه. وإذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح في ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل. وذاك أن الكلام في وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علّة لذلك الأمر. وكون العشق علة للمعاداة في المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر. فإذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة. وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون لذلك لعلة الحسد أو لغيرها، لأن رد الرداء شأنها فاعرفه، فإن من حكم المحصل أن لا ينظر في تلاقي المعاني وتناظرها إلى جمل الأمور، وإلى الإطلاق والعموم، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعي التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل. فأنت في نحو بيت ابن وهيب ـ وحاربني الخ ـ تدّعي صفة غير ثابتة إذا هي ثبتت اقتضت مثل العلة التي ذكرها. وفي نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدّعي لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعاً. وهكذا قول المتنبي:

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لـعـل بـهـا مـثـل الـذي بـي مـن الـسـقـم
فـلـو لـم تـغـر لـم تـزو عـنـي لـقـاكـم ولـو لـم تـرد كـم لـم تكن فيكم خـصـمـي

الدعوى في إثبات الخصومة وجعل النوى كالشيء الذي يعقل ويميز ويريد ويختار، وحديث الغيرة والمشاركة في هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن

يفتقر منك إلى وضع واختراع.

ومما يلحق بالفن الذي بدأت به قوله:

بنفسي ما يشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دها حسنه ورد[1]
أراقت دمي عمداً محاسن وجهه فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو

لأنه قد أتى بحمرة العين وهي تعرض لها من حيث هي عين معلة، وأتى بإراقة الدم في صورة العلة، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فليس ثَمَّ إراقة دم. وأصل هذا قول ابن المعتز:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب[2]

وبين هذا الجنس وبين نحو «الريح تحسدني» فرق، وذلك أن لك هناك فعلاً هو ثابت واجب في الريح وهو رد الرداء على الوجه، ثم أحببت أن تتطرف فادّعيت لذلك الفعل علة من عند نفسك. وأما ههنا فنظرت إلى صفة موجودة فتأولت فيها أنها صارت إلى العين من غيرها وليست هي من شأنها أن تكون في العين، فليس معك هنا إلا معنى واحد. وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود معلوم، والآخر مدّعى موهوم، فاعرفه.

ومما يشبه هذا الفن الذي هو تأول في الصفة فقط من غير أن يكون معلول

---

(1) الواو في (ونرجسه) للحال يريد الذي صار نرجس طرفه كالورد من الرمد.

(2) أحفظ المصراع الثاني من البيت الأول:

* من كثرة الفتك نالها وصب *

وكلمة (الفتك) أطرف وأبلغ من كلمة القتل ـ ومن البيت الثاني بإبدال كلمة السيف بكلمة النصل. وفي معناهما:

قالوا الحبيب شكا جعلت فداءه رمداً أضر بعينه كالعندم
فأجبتهم ما زال يفتك لحظه في مهجتي حتى تلطخ بالدم

قال صاحب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار): وقد قلت أحسن من هذا وهو:

لا تنكروا الحمرة في طرف من يسفك بالطرف دماء البشر
وإنما الإنكار من أنفس أرضية سالت بعين القمر

وعلة ما تراه من تأولهم في الأمراض والحميات أنها ليست بأمراض ولكنها فطن ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله:

وحوشبت أن تَضرَى بجسمك علة   إلا أنها تلك العزوم الشواقب

وقال ابن بابك:

فترت وما وجدت أبا العلاء   سوى فرط التوقد والذكاء

ولكشاجم بقوله في علي بن سليمان الأخفش:

ولقد أخطأ قوم زعموا   أنها من فضل برد في العصب
هو ذاك الذهن أذكى ناره   والمزاجُ المفرط الحر ٱلتهب

ولا يكون قول المتنبي:

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا   ما عذرها في تركها خيراتها
أعجبتها شرفاً فطال وقوفها   لتأمل الأعضاء لا لأذاتها

من هذا في شيء بأكثر من أن كلا القولين في ذكر الحمى وفي تطييب النفس عنها، فهو اشتراك في العرض والجنس فأما في عمود المعنى وصورته الخاصة فلا، لأن المتنبي لم ينكر أن ما يجده الممدوح حمى كما أنكره الآخر ولكنه كأنه سأل نفسه: كيف اجترأت الحمى على الممدوح مع جلالته وهيبته؟ أم كيف جاز أن يقصد شيء إلى أذاه مع كرمه ونبله؟ وأن المحبة من النفوس مقصورة عليه؟ فتمحل لذلك جواباً، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً، وهو تصريح ما اقتصر فيه على التعجب في قوله:

أيدري ما أرابك من يريب   وهل ترقى إلى الفلك الخطوب[1]
وجسمك فوق همة كل داء   فقرب أقلها منه عجيب

(1) قاله المتنبي في دمل أصيب به سيف الدولة. وأرابه الشيء: أحدث به ما يوجب القلق والريبة في العاقبة والذي أرابه: الدمل. «ومن يريب» استفهام وضمير يريب يعود إلى ما أرابك.

إلا أن ذلك الإيهام، أحسن من هذا البيان، وذلك التعجب موقوفاً غير مجاب، أولى بالإعجاب، وليس كل زيادة تفلح، وكل استقصاء يملح.

ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز:

صدت سرير وأزمعت هجري وصغت ضمائرها إلى الغدر[1]
قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

ألا تراه أنكر أن يكون الذي بدأ به شيباً، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً إلى نفي العيب وقطع الخصومة، ولم يسلك الطريقة العامية فيثبت المشيب، ثم يمنع العائب أن يعيب، ويريه الخطأ في عيبه به، ويلزمه المناقضة في مذهبه، كنحو ما مضى أعني كقول البحتري: «وبياض البازي» وهكذا إذا تأولوا في الشيب أنه ليس بابيضاض الشعر الكائن في مجرى العادة وموضوع الخلقة، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر، وبان من وجهه وظهر، كقول الطائي الكبير:

ولا يروعك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب[2]

[براعة ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد]

وينبغي أن باب التشبيهات قد حَظِي من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتي الصفة على غرابته، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف، فإنه قد بلغ حداً يبزُّ المعروف في طباع الغزل، ويلهي الثكلان، وينفث في عُقَد الوحشة، وينشد ما ضل عنك من المسرة، ويشهد للشعر بما يطيل لسانهُ في الفخر، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر، فمن ذلك قول ابن الرومي:

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً تورّدها عليه شاهد
لم يُخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة عاند[3]

(1) في نسخ الديوان التي بأيدينا «شرير» بالمعجمة.

(2) القتير: الشيب وقيل أول ما يظهر منه.

(3) عاند من عند (كنصر وضرب) إذا مال عن الطريق أو خالف الحق وأنكره.

للنرجس الفضل المبين وإن أبى   آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية أن هذا قائد   زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعِد   بِتسلُّب الدنيا وهذا واعد[1]
ينهي النديم عن القبيح بلحظه   وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك في الملاح سميه   أبداً فإنك لا محالة واجد
والورد إن فكرت فرد في اسمه   ما في الملاح له سميٌّ واحد
هذي النجوم هي التي ربتهما   بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما   شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة   ورياسة لولا القياس الفاسد

وترتيب الصنعة في القطعة أنه عمل أولاً على قلب طرفي التشبيه كما مضى في فصل التشبيهات، فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة، ثم لما اطمأن ذلك في قلبه واستحكمت صورته، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فُضِّل على النرجس ووضع في منزلة ليس يرى نفسه أهلاً لها، فصار يثوب[2] من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزىء، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها، ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها. ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر في سحر البيان، ما رأيت من وضع حجاج في شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له.

ومما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة، ويلحق بها في لطف الصنعة، قول أبي هلال العسكري:

---

(1) يقال: تسلبت المرأة إذا لبست السلاب وهي بالكسر: ثياب الحداد السود، والبيت بمعنى ما قبله، والمراد أن النرجس المفضل عنده يظهر في أول الربيع فتتلوه الأزهار والرياحين، والورد المفضول يظهر في آخر الربيع فيتوعد الرياحين سلب بهجتها حيث يذهب في أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد والورد كالطارد. وابن الرومي مشهور بذم الورد وتفضيل النرجس.

(2) يثوب: يرجع إلى نفسه.

زعم البنفسج أنه كعذاره ... حسناً فَسَلُوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به ... فلشد ما رفع البنفسج شانه[1]

وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين في هذا الفن نكت ولطف وبدع وظرائف لا يتكثر لها الكثير من الثناء، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء، فمن ذلك قول ابن نباتة في صفة الفرس:

وأدهم يستمد الليل منه ... وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا ... ويطوي خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشْكَ الفوت منه ... تشبث بالقوائم والمحيا

وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله في قطعة أخرى:

فكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه وخاض في أحشائه

وأول القطعة[2]:

قد جاءنا الطرف الذي أهديته ... هاديه يعقد أرضه بسمائه[3]
أولاية وليتنا فبعثته ... رمحاً سبيب العرف عقد لوائه[4]
نختال منه على أغرَّ محجل ... ماء الدياجي قطرة من مائه[5]

(1) مثل به من باب نصر أي: نكل به.
(2) القطعتان في فرس أدهم أغر محجل حمله عليه سيف الدولة جعل غرته أثر لطمة من الصباح في جبينه وتحجيله من خوض قوائمه الأربع في أحشاء الصباح. وقد ترك المصنف البيت الأول وهو:
يا أيها الملك الذي أخلاقه ... من خلقه ورواؤه من رائه
أي أخلاقه مخلوقة له ورواؤه ومنظره من رأيه. وبعبارة أخرى هو في خلقه وخُلُقه كأنه كوّن نفسه وخلقها كما يرى ويحب من الكمال.
(3) الطرف الكريم بالكسر: من الخيل والكريم الأطراف من الآباء والأمهات والهادي: العنق يغلو في وصفه بالطول.
(4) العرف: شعر رقبة الفرس الذي ينبت في محدبها. والسيب: الخصلة من الشعر. شبهه على عنقه الطويل بالراية على الرمح.
(5) في نسختي الكتاب (نختل) وفي نسخة من الديوان (نختال) وهي أظهر.

فكأنما لطم الصباح جبينه … فاقتص منه وخاض في أحشائه
متمهلاً والبرق من أسمائه … متبرقعاً والحسن من أكفائه
ما كانت النيران تُكمِن حرها … لو كان للنيران بعض ذكائه
لا تعلق الألحاظ في أعطافه … إلا إذا كفكفت من غُلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها … حتى يكون الطرف من أسرائه[1]

ومما له في هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإبداع مع السلامة من التكلف قوله:

وماءٌ على الرضراض يجري[2] … ....
كأن بها من شدة الجري جنة … وقد ألبستهن الرياح سلاسلا

وإنما ساعده التوفيق، من حيث وُطيء له من قبل الطريق، فسبق العرف بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع، فتدرج من ذلك إلى أن جعلها سلاسل كما فعل ابن المعتز في قوله:

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت … لترضع أولاد الرياحين والزهر

ثم أتم الحذق بأن جعل للماء صفة تقتضي أن يسلسل وقرَّب مأخذ ما حاول عليه، فإن شدة الحركة وفرط سرعتها من صفات الجنون كما أن التمهل فيها والتأني من أوصاف العقل.

---

(1) كنت في الطبعة الأولى ضبطت «الطرف» الأول من المبيت بالكسر، والثاني بالفتح بمعنى أن الجواد الكريم لا تكمل محاسنه حتى يأسر طرف الناظر إليه، فلا يستطيع أن يتحول عنه، وقد عكس شيخنا الضبط في نسخة الدرس فضبط الأول بالفتح والثاني بالكسر ولم يظهر لي جعل الجواد أسيراً للطرف كعكسه فتأمله.

(2) هكذا وجدنا البيت في النسختين محرفاً ناقصاً وقد أتمه شيخنا في الدرس بقوله:

وماء على الرضراض يجري كأنه … أفاعٍ عراها الذعر تطلب موئلا

وكتب بإزائه في حاشية نسخته: أتممت البيت على هذا الوجه ويغلب على ظني أن التتمة في معنى ما يريد الشاعر، وعلى من وقف على البيت كلامه أن يفيدنا بما وجد. والرضراض: ما دق من الحصى. قال:

يبدو له الداء الخفي كما بدا … للعين رضراض الغدير الصافي

ومن هذا الجنس قول ابن المعتز في السيف في أبيات قالها في الموفق وهي:

وفارس أغمد في جُنة يقطع السيف إذا ما ورد[1]
كأنه ماء عليه جرى حتى إذا ما غاب فيه جمد
في كفه عضب إذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة، فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته. ويشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيت وعلق منه الرعدة في قوله:

فإن عجمتني نيوب الخطوب وأوهى الزمان قوى مُنَّتي[2]
فما اضطرب السيف من خيفة ولا أُرعِد الرمحُ من قِرة[3]

إلا أنه ذهب بها في أسلوب آخر، وقصد إلى أن يقول: إن كون حركات الرمح في ظاهر حركة المرتعد، لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض، وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد في الرمح للعلل التي لمثلها تكون في الحيوان، وأما ابن المعتز فحقق كونها في السيف على حقيقة العلة التي لها تكون في الحيوان فاعرفه، وقد أعاد هذا الارتعاد على الجملة التي وصفت لك فقال:

(1) الجنة بالضم: كل ما وقى من سلاح. يصف فارساً اشتمل عليه الحديد وعمته الدروع فإذا ورد عليه السيف قطعه فلا ينفذ فيه (ش) وجعله لفظ الجنة خاصاً بالسلاح يريد به الحقيقة وقد استعمل في غيرها مجازاً.

(2) عجمه (كنصر): عضه ليختبر صلابته. والنيوب جمع ناب. والمنة كالقوة وزناً ومعنى وكذا الضعف، فهي من الأضداد، وكأنه أراد ضروب القوة وأنواعها. وأصل القوة: الطاقة الواحدة من الحبل وجمعها قوى على القياس قال شيخنا: هنا كأن القوة حبل ذو طاقات وقوى. وكان المناسب لفظاً أن يقول: كأن المنة الخ.

(3) القرة بالكسر: ما يأخذ المرء من البرد. وأرعد بضم الهمزة وارتعد: أصابته الرعدة وهي بالفتح والكسر للهيئة الرجفة والاضطراب.

[من قال خير الشعر أكذبه وضده]

قالوا طواه حزنه فانحنى فقلت والشك عدو اليقين
ما هيف النرجس من صبوة[1] ولا الضنى في صفرة الياسمين
ولا ارتعاد السيف من قِرة ولا انعطاف الرمح من فرط لين

ومما حقه أن يكون طرازاً في هذا النوع قول البحتري:

يتعثرْن في النحور وفي الأو جه سكراً لما شربن الدماء[2]

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثراً منها كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزه له ارتعاداً، ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد فاعرفه.

ومن هذا الباب قول علبة:

وكأن السماء صاهرت الأر ض فصار النثار من كافور[3]

وقول أبي تمام:

كأن السحاب الغر غيبن تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع

وقال السريّ يصف الهلال:

جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال

ثم قال:

كأنه قيد فضة حرج فُضَّ عن الصائمين فاختالوا

كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوهم أن الذي جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر، وحصل بحضرتهم على الحقيقة ولم يقتصر

(1) هيف كيس وهاف كخاف هيفاً بالفتح وبالتحريك: ضمر بطنه ورقت خاصرته فهو أهيف وهي هيفاء.
(2) قوله لما شربن... الخ فيه وجهان كسر اللام وتخفيف الميم على أن ما مصدرية والمعنى لشربهن الدماء ـ وفتح اللام وتشديد الميم على أن لما حينية. قاله (ش).
(3) المراد بالنثار هنا الثلج كما قال (ش).

على دعوى حصوله حتى يصيب له علة وأقام عليه شاهداً، فأثبت علبة زفافاً بين السماء والأرض، وجعل أبو تمام للسحاب حبيباً قد غيب في التراب. وادّعى السريّ أن الصائمين كانوا في قيد وأنه كان حرجاً فلما فض عنهم انكسر بنصفين أو اتسع فصار على شكل الهلال. والفرق بين بيت السري وبيتي الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامي جار على الألسن، وجعل القطر الذي ينزل من السحاب دموعاً ووصف السحاب والسماء بأنها تبكي كذلك، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه إلا أن نظيره معتاد ومعناه من حيث الصورة موجود. وأعني بالنظير ما مضى من تشبيه الهلال بالسوار المنفصم كما قال:

حاكياً نصف سوار ... من نضار يتوقد

وكما قال السري نفسه:

ولاح لنا الهلال كشطر طوق ... على لبات زرقاء اللباس

إلا أنه ساذج لا تعليل فيه يجب من أجله أن يكون سواراً وطوقاً فاعرفه.

ورأيت بعضهم ذكر بيت السري الذي هو: «كأنه قيد فضة حرج» مع أبيات شعر جمعه إليها وأنشد قطعة ابن الحجاج:

يا صاحب البيت الذي ... قد مات فيه الصيف جوعا
مالي أرى فلك الرغيـ ... ـف لديك مشترفاً رفيعا[1]
كالبدر لا نرجو إلى ... وقتِ المساء له طلوعا

قال إنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين إحداهما الاستدارة والثاني طلوعه مساء قال: وخير التشبيه ما جمع معنيين كقول ابن الرومي:

يا شبيه البدر في الحسـ ... ـن وفي بعد المنال
جُد فقد تنفجر الصـ ... ـخرة بالماء الزلال

(1) الفلك من كل شيء: مستداره ومعظمه فقد يطلق بجانب الرغيف بلا تشبيه والمشترف فاعل من اشترف: إذا انتصب والفرس كان مُشرف الخلق (ش) ولكن الشاعر قصد التشبيه وهو محل الشاهد.

وأنشد أيضاً لابراهيم بن المهدي:

ورحمت أفراخاً كأفراخ القطا وحنين والهة كقوس النازع

ثم قال: ومثله قول السريّ * كأنه قيد فضة حرج * وهو لا يشبه ما ذكره إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيد المفضوض ولونه بالفضة، فأما إن قصد النكتة التي هي موضع الإغراب فلا يستقيم الجمع بينه وبين ما أنشد لأن شيئاً من تلك الأبيات لا يتضمن تعليلاً، وليس فيها أكثر من ضم شبه إلى شبه كالحنين والانحناء من القوس، والاستدارة والطلوع مساء من البدر، وليس أحد المعنيين بعلة للآخر، كيف ولا حاجة بواحد من الشبهين المذكورين إلى تصحيح غيره له.

ومما هو نظير لبيت السري وعلى طريقه قول ابن المعتز:

سقاني وقد سُلَّ سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب

لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر في قوله:

حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا المنصل من قراب

وقوله:

أما الظلام فحين رق قميصه وأتى بياض الصبح كالسيف الصدى

ولكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سيفاً مسلولاً، ويجعل نفسه كأنها لا تعلم أن ههنا تشبيهاً، وأن القصد إلى لون البياض في الشكل المستطيل فتوصل إلى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذي سل السيف في قفاه فهو يهرب مخافة أن يضرب به.

ومثل هذا في أن جعل الليل يخاف الصبح لا في الصنعة التي أنا في سياقها قوله:

سبقنا إليها الصبح وهو مقنع كمين وقلب الليل منه على حذر

وقد أخذ الخالدي بيته الأول أخذاً فقال:

والصبح قد جردت صوارمه ... والليل قد هم منه بالهرب

وهذه قطعة لابن المعتز بيت منها هو المقصود:

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت ... مثل البغي تتوجت لزناة
جاءتك زائرة كعام أول ... وتلبست وتعطرت بنبات
وإذا تعرى الصبح من كافوره ... نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس ... قذيت وآذن حيها بممات[1]

هذا البيت الأخير هو المراد، وذلك أن الضحك في الورد وكل ريحان ونور يتفتح مشهور معروف، وقد قاله في هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته، وإبار دولته، وبدو أمارات الفناء فيه، وأعاد هذا الضحك من الورد فقال:

ضحك الورد في قفا المنثور ... واسترحنا من رِعدة المقرور[2]

أراد إقبال الصيف وحر الهواء ألا تراه قال بعده:

واستطبنا المقيل في برد ظل ... وشممنا الريحان بالكافور[3]
فالرحيل الرحيل يا عسكر اللـ ... ـذات عن كل روضة وغدير

[الفصل بين المعنى الحقيقي والتخييل]

فهذا من شأن الورد الذي عابه به ابن الرومي في قوله:

فصل القضية إن هذا قائد ... زهر الرياض وإن هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكاً ضحك من استولى وظفر، وابتز

---

(1) قذيت: دخل فيها القذى: شبه النرجس أدركه الجفاف والتصوح بالعيون يصيبها القذى.
(2) الرعدة بالكسر: النافض أي الاضطراب من نحو برد وخوف، والمقرور: من أصابه القر «البرد» على غير قياس.
(3) أراد أنه استبدل الورق الأخضر بالزهر الأبيض لأن وقت الزهر قد انقضى، فالباء في الكافور للبدل (ش).

غيره ولاية الزمان واستبد بها.

ومما يشوب الضحك فيه شيء من التعليل قوله أيضاً:

مات الهوى مني وضاع شبابي وقضيت من لذاته آرابي
وإذا أردت تصابيا في مجلس فالشيب يضحك بي مع الأحباب

لا شك أن لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك في نحو قول دِعبل [الخزاعي]:

* ضحك المشيب برأسه فبكى *

وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطي الرجل ما لا يليق به، وتكلفه الشيء ليس هو من أهله، وفي ذلك ما ذكرت من إخفاء صورة التشبيه، وأخذ النفس يتناسيه، وهكذا قوله:

لما رأونا في خميس يلتهب في شارق يضحك من غير عجب[1]
كأنه صب على الأرض ذهب وقد بدت أسيافنا في القرب
حتى تكون لمنايا هم سبب نرفل في الحديد والأرض تجب[2]
وحن شريان ونبع فاصطخب تترسوا من القتال بالهرب[3]

المقصود قوله «يضحك من غير عجب» وذاك أن نفيه العلة إشارة إلى أنه من جنس ما يعلل، وأنه ضحك قطعاً وحقيقة. ألا ترى أنك لو رجعت إلى صريح التشبيه فقلت: هيئته في تلألؤه كهيئة الضاحك ثم قلت: من غير عجب ـ قلت قولاً غير مقبول. واعلم أنك إن عددت قول بعض العرب:

ونثرة تهزأ بالنصال كأن فيها حدق الهلال

الهلال الحية ههنا واللام للجنس في هذا القبيل ـ لم يكن لك ذلك.

(1) الشارق: الشمس والجانب الشرقي من الجبل وغيره وهو خلاف الغارب.
(2) تجب وجيباً: تخفق.
(3) الشريان والنبع نوعان من الشجر تصنع منهما القسيّ. وحنّ القضيب: صوّت عند ليّه. ويقال: قوس حنانة.